مفارقة المقاومة عند جوديث بتلر: حين تتحول مقاومة السلطة إلى سلطة

د. بشرى عسال
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان
المغرب

الملخص:

يتناول هذا المقال مفهوم أداء المقاومة في فلسفة جوديث بتلر من زاوية نقدية تكشف المفارقة الكامنة فيه. فإذا كان الجندر في نظر بتلر عملا نقوم به لا معطى نتلقاه فإن مقاومة المعايير التي تحكمه لا تتم إلا من داخل اللغة والمؤسسات والسياسات التي تنتج تلك المعايير. ينطلق المقال من هذه الملاحظة ليقف على ثلاث مفارقات: مقاومة سلطة اللغة باللغة نفسها، والانتقال من نقد الكونية إلى الانخراط فيها، ثم تحول خطاب الأقليات من طلب الاعتراف إلى ممارسة سلطة قد تجر معارضيها إلى العقاب. ويخلص إلى أن المقاومة التي لا تعي مفارقتها تعيد إنتاج ما تقاومه، وأن الوعي بهذه المفارقة شرط لكل مقاومة تريد أن تظل وفية لسؤال بتلر عن إمكان العيش حياة حقيقية ضمن حياة زائفة.

الكلمات المفتاحية: جوديث بتلر، الأداء، المقاومة، الجندر، الكونية، سياسات الهوية.

Abstract:

This article examines Judith Butler's notion of resistant performance and the paradox it carries. If gender is something we do rather than something we receive, resisting the norms that govern it can only take place within the language, institutions and policies that produce those norms. The article traces three forms of this paradox: resisting the power of language through language itself, moving from a critique of universality to an embrace of it, and the shift of minority discourse from a demand for recognition to an exercise of power that may punish its opponents. It concludes that a resistance unaware of its own paradox reproduces what it resists.

Keywords: Judith Butler, performativity, resistance, gender, universality, identity politics.

مقدمة

لم يعد الجندر في الفلسفة المعاصرة مفهوما يرادف الجنس بالمعنى البيولوجي، فمنذ مقولة سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) الشهيرة "لا تولد الواحدة امرأة، بل تصير كذلك"[1] انزاحت دلالته نحو ما هو ثقافي واجتماعي. ثم بلغ هذا الانزياح مع جوديث بتلر (Judith Butler) حدا صار معه الجندر شرطا لفهم الهوية نفسها. تقول بتلر: "من الخطأ أن نظن أن النقاش حول الهوية يجب أن يحدث قبل أي نقاش حول الجندر وذلك لسبب بسيط هو أن الأشخاص لا يصبحون مفهومين بشكل واضح (intelligible) إلا عندما يصبحون مجندرين (becoming gendered)"[2].غير أن بتلر لم تكتف بتعريف الجندر أو بنقد الفكر النسوي الذي سبقها. فقد انتقلت بالتدريج من التنظير للجندر إلى صياغة ما يمكن أن نسميه نظرية في المقاومة تقوم على مفهوم الأداء. وهي نظرية تريد أن تمنح الذات قدرة على الخروج من القوالب التي يضعها فيها النظام الاجتماعي. لكنها تحمل في داخلها سؤالا لم تتوقف عنده بتلر بما يكفي. فإذا كانت المقاومة لا تتم إلا بالأدوات التي تملكها السلطة نفسها (اللغة والقانون والمؤسسات والسوق) فهل يمكنها أن تنجو من التحول إلى سلطة جديدة؟

ينطلق هذا المقال من فرضية مفادها أن أداء المقاومة عند بتلر محكوم بمفارقة بنيوية. فالمقاومة تقع في قبضة السلطة التي تقاومها كلما اتسع نطاقها وازدادت قدرتها على التأثير. نقف أولا على المفارقة كما كشفتها بتلر نفسها داخل الفكر النسوي، ثم على تحول الأداء عندها إلى مقاومة. بعد ذلك نختبر فرضيتنا عبر ثلاث محطات. نقف في الأولى على مقاومة سلطة اللغة باللغة نفسها. ونتتبع في الثانية تحول موقف بتلر من سياسة الكونية. ونناقش في الثالثة انقلاب المعادلة حين يصير خطاب الأقلية سلطة تفرض نفسها على غيرها. ونختم بالبحث عن أفق يسمح بتجاوز هذه المفارقة في فكر بتلر نفسها وفي فكر بول ريكور (Paul Ricœur). ولا نريد بذلك نقض فلسفة بتلر بقدر ما نريد أن نقرأها بأدواتها وأن نسائلها بالسؤال الذي ظل يحركها: "كيف يمكن أن نعيش حياة حقيقية ضمن حياة زائفة؟"[3]

أولا: بتلر ناقدة لمفارقة المقاومة النسوية

لم تكن المفارقة التي نروم الكشف عنها غائبة عن بتلر. بل إن كتابها «قلق الجندر» قام في جزء كبير منه على كشف مفارقة مماثلة داخل الفكر النسوي نفسه. فقد أسست سيمون دي بوفوار لفكرة أن المرأة تصير امرأة عبر المجتمع والثقافة لا عبر البيولوجيا. واستندت النسوية إلى هذا الأساس في مقاومتها للهيمنة الذكورية. غير أن بتلر لم تسع إلى الانتصار لهذه الفكرة كما هي. فهي ترى أن النسوية تدعو في مقاومتها للهيمنة إلى هوية نسوية موحدة، وأنها بذلك تحل مشكلة بمشكلة أخرى. فالهوية الموحدة تقصي أصنافا أخرى كالمثليين والمتحولين وتتعارض مع الطابع الأدائي المستمر للجندر[4].

إن ما تكشفه بتلر هنا هو بالضبط بنية المفارقة التي نبحث فيها. فالحركة التي تجندت لمقاومة إقصاء المرأة انتهت إلى إقصاء فئات أخرى لأنها احتاجت إلى هوية ثابتة تتكلم باسمها. ولذلك كانت نظرية الأداء في «قلق الجندر» موجهة بالدرجة الأولى إلى الفكر النسوي لمواجهة الافتراضات التي أقامت عليها بعض المفكرات النسويات تصوراتهن للجسد. وقد صرحت بتلر بأن نصها سعى إلى تقويض "أي جهود، وكل جهود، إلى استعمال خطاب عن الحقيقة من أجل نزع المشروعية عن الممارسات الجنسية والمجندرة الخاصة بأقلية ما"[5].

(1) سيمون دي بوفوار، نقلا عن: جوديث بتلر، قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، ترجمة فتحي المسكيني (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، 65.

(2) بتلر، قلق الجندر، 92–93.

(3) رشيد العلوي، الفلسفة بصيغة المؤنث (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2018)، 35.

(4) بتلر، قلق الجندر، 107.

(5) بتلر، قلق الجندر، 28.

ثم انتقلت نظرية الأداء في مؤلفات بتلر اللاحقة من نقد النسوية إلى مجال أعم يشمل الجوانب الفكرية والسياسية التي تدخل في عملية الأداء. ففي كتاب «تفكيك الجندر» تنظر بتلر في التحديات التي لا تفضي في نظرها إلى حياة قابلة للعيش (does not lead to a viable life)[6]. وهكذا ظل الهاجس الذي يحرك فكرها هو تحقيق إمكانية للعيش أو التعايش بوصفها غاية أسمى للذات. والسؤال الذي يفرض نفسه انطلاقا من هذا المسار بسيط في صياغته عميق في نتائجه: إذا كانت بتلر قد كشفت كيف تحولت مقاومة النسوية إلى إقصاء جديد فهل نجت نظريتها هي من المصير نفسه؟

ثانيا: من الأداء إلى أداء المقاومة

يقوم مفهوم الأداء عند بتلر على استعارة من فلسفة اللغة. فقد نقلت إلى حقل الجندر نظرية الأفعال الكلامية التي صاغها جون أوستين (John L. Austin) في كتابه «كيف تصنع الكلمات الأشياء» وقد انتبه أوستين إلى أن "الملفوظات لا ينحصر دورها في وصف أشياء العالم الخارجي، أو إقرار وقائع معينة، وإنما تمثل في ظروف مناسبة إنجازا لأفعال وأعمال محددة"[7]. وعلى هذا النحو تفهم بتلر الجندر بوصفه فعلا لا صفة. فالذات لا تتلقى جندرها من مصدر خارجي ثابت بل تنجزه عبر أفعال متكررة. ومن ثم "فإن الجندر هو دائما عمل نقوم به (a doing)"[8].

يترتب على هذا الفهم أن التصريح بالجندر واختياره فعل كلامي يتعدى الوصف إلى الإنجاز. وهو ما يعبر عنه أحد الباحثين بأنه "إعادة إنتاج الجسد في حدود اللغة"[9]. غير أن هذه اللغة ليست محايدة. فهي مكون ثقافي يحمل العادات والتقاليد ورؤية المجتمع للجسد. ولذلك لا يمكن أن يكون الأداء حرية مطلقة يمارسها فرد منعزل. وقد انتبهت بتلر مبكرا إلى أن اعتبار الجندر نتاجا لرغبة حرة خالصة يجعله قريبا من الأنا التي أسسها رينيه ديكارت (René Descartes) على الكوجيطو بمعزل عن أي ظرف ثقافي أو اجتماعي[10]. وهي تؤكد في هذا الصدد أنه "من المستحيل فصل الجندر عن التقاطعات السياسية والثقافية التي في نطاقها يتم إنتاجه"[11].

ثم إن الجندر في نظر بتلر يُسنَد إلى الأشخاص بشكل قد يسبب لهم الألم حينما لا تتوافق أجسادهم مع تأويل المجتمع لها كأن يشعر أحدهم بأنه امرأة في حين يراه الآخرون رجلا[12]. والسعي نحو الخروج عن هذا النمط ليس بالأمر السهل لأن الفرد يسلم جسده، وهو أخص ما يملك، للآخر الذي يحكم عليه من خلاله وفق معايير ثقافية[13]. وهذا ما يقف في وجه الرغبة في الخصوصية والحرية ويجعل الجسد موضوعا لنظرة لا يملكها صاحبه.

من هنا يتحول الأداء إلى مقاومة، فالنظام الاجتماعي يصنف الأجساد وفق معايير ثقافية ويضع الجندر في موضع قلق يمنع الأنا من الظهور[14]. والأداء في مواجهة ذلك شكل من أشكال التمرد على هذه القوالب. وقد اتسع نطاقه في كتابات بتلر المتأخرة بعد تأثرها بما

(6) Judith Butler, Undoing Gender (New York: Routledge, 2004), 2.

(7) محمد الحيرش، النسق والاستعمال: من لسانيات اللغة إلى لسانيات التواصل (طنجة: دار الفاصلة للنشر، 2021)، 253.

(8) بتلر، قلق الجندر، 107.

(9) سامي عبد العال، "اللغة والجسد: الفلسفة النسوية عند جوديث بتلر"، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية 31، ع. 31، ج. 2 (يوليو 2021): 465.

(10) Judith Butler, "Sex and Gender in Simone de Beauvoir's Second Sex," Yale French Studies, no. 72 (1986): 37.

(11) بتلر، قلق الجندر، 70.

(12) بتلر، قلق الجندر، 9.

(13) Butler, Undoing Gender, 20.

(14) بتلر، قلق الجندر، 52.

يسمى سياسة الجندر الجديدة (New Gender Politics)[15] التي تشمل فئات أخرى كالمتحولين جنسيا. فصار هؤلاء في نظرها يجسدون صورة الأداء المقاوم لأنهم يتمردون على القوالب الوصفية التي يصنف من خلالها النظام الاجتماعي الأشخاص بحسب مظهرهم الخارجي. ويمكن أن تتحقق هذه المقاومة عبر ممارسات بسيطة كاللباس أو تغيير الملامح بما يغير رؤية الآخرين للجسد. أما القانون الأبوي الذي تتمرد عليه هذه الأداءات فـ "يجب فهمه ليس بوصفه إرادة إلهية حتمية، بل بوصفه قانونا أخرق دائم التلعثم، يحضر الأرضية للانتفاضات ضده"[16].

ويظل نجاح الأداء المقاوم عند بتلر رهينا بقدرته على تغيير الواقع. تقول: "عندما بدأ المثليون في الظهور، أو عندما بدأ المتحولون جنسيا في العيش بانفتاح، حدث تغيير في العالم. من خلال الظهور والتحدث والتصرف بطرق معينة"[17]. وتستعير بتلر هنا أيضا من أوستين شرطه للحكم على نجاح الفعل الكلامي أو إخفاقه، وهو ما يسميه «الظرف المناسب»[18]. لكن هذا الشرط نفسه هو موضع المفارقة. فالظرف المناسب لا يصنعه الفرد وحده. إنه ظرف لغوي ومؤسساتي وسياسي. وكل أداء يطلب النجاح مضطر إلى المرور عبر هذه البنى وإلى استعمال سلطتها. وهذا ما سنقف عليه في المحطات الثلاث الآتية.

ثالثا: المفارقة الأولى: مقاومة سلطة اللغة باللغة

تحضر اللغة في فلسفة بتلر بوصفها الآلية الثقافية الأولى التي يُمارَس عبرها العنف الاجتماعي. فهي ترى أن "ثمة عنفا قابعا في عمليات التعبير عن المرأة"[19]. وتستحضر في هذا السياق رؤيتين متمايزتين. الأولى لمونيك فيتيغ (Monique Wittig) التي ترى أن اللغة ليست في حد ذاتها ضد المرأة وأن الهيمنة تنتج عن استعمالات معينة لها. والثانية للوس إريغاري (Luce Irigaray) التي ترى أن اللغة حاملة للفروق بين المذكر والمؤنث ومكرسة لأشكال الهيمنة الذكورية[20]. وتبدو بتلر أقرب إلى إريغاري حين تقول: "إن الأنثوي ليس علامة على الذات أبدا؛ إن الأنثوي لم يكن قط صفة لجندر ما، بالحري إن الأنثوي هو دلالة النقص"[21].

إذا كانت اللغة بهذا المعنى حاملة للسلطة فإن مقاومتها لا تتم إلا من داخلها. وهذا ما تعترف به بتلر في كتابها «خطاب الإثارة» حين تقول: "نحن نمارس قوة اللغة حتى في سعينا للتصدي لقوتها"[22]. تكشف هذه الخلاصة عن تضاد كامن في فعل المقاومة نفسه. فالذات التي تريد أن تتحرر من تصنيف لغوي لا تملك إلا أن تصوغ تحررها في كلمات. والكلمات الجديدة التي تقترحها لا تكتسب قوتها إلا إذا صارت معيارا يتداوله الجميع واكتسبت بذلك الصفة نفسها التي كانت للكلمات القديمة.

يتضح هذا حين نتأمل فكرة البين بين (in-betweenness) التي تشكل في نظر بتلر قلقا للجندر[23]. فاللغة تقصر عن التعبير عمن يقع بين الذكورة والأنوثة. ويكفي أن يخاطب الآخرُ الشخصَ بصيغة المذكر أو المؤنث ليضعه في خانة لم يخترها. والحل الذي تقترحه بتلر

(15) Butler, Undoing Gender, 4.

(16) بتلر، قلق الجندر، 113.

(17) Judith Butler, "Berkeley Professor Explains Gender Theory," Big Think, June 8, 2023, video, 8:12, https://www.youtube.com/watch?v=UD9IOllUR4k.

(18) الحيرش، النسق والاستعمال، 262.

(19) عبد العال، "اللغة والجسد"، 469.

(20) بتلر، قلق الجندر، 109.

(21) بتلر، قلق الجندر، 112.

(22) Judith Butler, Excitable Speech: A Politics of the Performative (New York: Routledge, 1997), 1. Our translation.

(23) بتلر، قلق الجندر، 33.

يمر بالطريق نفسه الذي سارت فيه حركات سابقة. فكما اعتاد المجتمع الأمريكي على لغة جديدة مبنية على الاحترام والمساواة في التعامل مع السود ثم مع النساء يجب في نظرها أن تُخلَق طريقة في التعبير تناسب الفئات الجديدة وأن يتم الاعتياد عليها[24].

غير أن الاعتياد هنا ليس فعلا بريئا. فهو يعني أن تتحول الصيغة الجديدة إلى قاعدة. والقاعدة بحكم تعريفها تحدد من يسمى ذاتا ومن لا يسمى كذلك. وبتلر نفسها تقر بهذا الدور حين تقول في سياق قراءتها لميشيل فوكو (Michel Foucault): "لا تقرر القواعد من تكون على نحو حتمي بالرغم من أنها توفر الإطار ونقطة الإحالة لأية مجموعة من القرارات التي تتخذها فيما بعد"[25]. فالقواعد الجديدة التي يفرضها أداء المقاومة لا تختلف في وظيفتها عن القديمة. إنها توفر بدورها الإطار الذي ستتشكل داخله ذوات أخرى.

ويتعمق هذا الإشكال حين نربط الأداء بالاعتراف. فالذات عند بتلر لا تتشكل إلا داخل نظام للحقيقة يجعل الاعتراف بها ممكنا. وهي تستعيد سؤال فوكو: "من يمكن أن أكون في ظل نظام الحقيقة الذي يقرر الأنطولوجيا بالنسبة لي؟"[26]. ثم تلاحظ أن فوكو لم يطرح السؤال المقابل عن الآخر أي سؤال: من تكون أنت؟ وتذهب إلى أن "المرء لا يطرح سؤال القوة إلا لأن أحدا طلب إليه أن يقول الحقيقة عن نفسه"[27]. ومعنى ذلك أن الأداء المقاوم، وهو يطلب الاعتراف، يتوجه بطلبه إلى نظام الحقيقة نفسه الذي ينتقده. فهو لا يلغي هذا النظام بل يطلب منه أن يعيد ترتيب من يدخل فيه ومن يخرج منه.

ولعل أوضح مثال على ذلك ما حدث لتعريف المرأة في المعاجم. فبعد أن كان معجم كامبريدج يعرفها بأنها أنثى بالغة (adult female) غير تعريفه في تحديث سنة 2022 ليصير: "شخص بالغ يعيش ويعتبر نفسه كأنثى، على الرغم من أنه قد يكون قيل عنه إنه يحمل جنسا مختلفا عند الولادة"[28]. إن هذا التعديل انتصار للأداء في ظاهره. لكنه في العمق انتقال لخطاب الحقيقة من ضفة إلى أخرى. فالمعجم لم يكف عن أن يكون سلطة تقرر معنى الكلمات بل غير الجهة التي يخدمها. وهذا ما يعيدنا إلى ما أرادت بتلر تقويضه في «قلق الجندر» أي استعمال خطاب عن الحقيقة لتثبيت معنى واحد وإقصاء ما عداه.

وهنا تصير المفارقة مضاعفة. فبتلر في «الذات تصف نفسها» تحذر من مطالبة الآخر بوصف نهائي لذاته وتعد ذلك من تمظهرات العنف الأخلاقي. تقول: "إذن فإن أية محاولة لتقديم وصف لذاتي ستكون محكومة بأن تجرب الفشل لكي تقارب الصواب. بينما نحن نطلب معرفة الآخر، أو نطالب الآخر أن يعرف نفسه على نحو نهائي ومؤكد، فإن من المهم لنا ألا ننتظر جوابا شافيا"[29]. لكنها في نظرية الأداء المقاوم تدعو إلى معايير لغوية جديدة تلزم الآخرين بالاعتراف بوصف معين للذات. ولا يستقيم الجمع بين الموقفين إلا إذا ظل المعيار الجديد مفتوحا على المراجعة ولم يتحول إلى سلطة تحاسب من يخرج عنه. وإلا انتقل العنف الأخلاقي من جهة إلى أخرى دون أن يختفي.

رابعا: المفارقة الثانية: من نقد الكونية إلى الانخراط فيها

تتجلى المفارقة في مستوى ثان يتعلق بموقف بتلر من سياسة الكونية (universality). فقد كانت في الإصدار الأول من «قلق الجندر» ناقدة لهذه السياسة. ثم عادت في مقدمة الطبعات اللاحقة لتعترف بمراجعة موقفها فتقول: "وفي المقابل، كنت مضطرة إلى مراجعة بعض مواقفي ضمن قلق الجندر بفضل التزاماتي السياسية"[30]. وتقصد بتلر بهذه الالتزامات المناصب التي تولتها كرئاسة اللجنة الدولية لحقوق

(24) Butler, "Berkeley Professor Explains Gender Theory," 2:48.

(25) جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم (بيروت: جامعة الكوفة، 2014)، 65.

(26) بتلر، الذات تصف نفسها، 69.

(27) بتلر، الذات تصف نفسها، 212.

(28) Butler, "Berkeley Professor Explains Gender Theory," 8:44. Our translation.

(29) بتلر، الذات تصف نفسها، 95.

(30) بتلر، قلق الجندر، 42.

الإنسان الخاصة بالمثليين. وقد تفطنت كما تقول إلى البعد الاستراتيجي والإيجابي لهذه الكونية[31].لا يتعلق الأمر هنا بمجرد تغيير في الرأي بل بانتقال واع من النظرية إلى السياسة تعبر عنه بتلر بقولها: "وفي وقت قريب اضطررت لربط عملي بالنظرية السياسية"[32]. وهي ترى أن "لأي نظرية في تكوين الجندر افتراضات مسبقة ونتائج سياسية [...] من المستحيل فصل نظرية الجندر عن فلسفة سياسية من فلسفات النسوية"[33]. بل تذهب أبعد من ذلك حين تقول: "أرى أن مصالح سياسية في المقام الأول هي ما يخلق ظاهرة الجندر"[34]. ويكفي دليلا على هذا التداخل أن الرغبة في ترجمة «قلق الجندر» إلى الفرنسية لم تظهر إلا بعد تناول بعض أفكاره في سياق سياسي فرنسي متعلق بالمصادقة القانونية على العلاقات المثلية[35].

نعتقد أن بتلر غيرت نظرتها إلى سياسة الكونية لأنها وجدت نفسها ومن يتشارك معها في حاجة ملحة إليها لضمان انتشار الأفكار وبلوغ أكبر قدر من التأثير العالمي. وهنا نعود إلى المفارقة نفسها التي رأيناها مع اللغة. فمقاومة سياسة الكونية أدت ببتلر إلى الانخراط في تلك الكونية ومحاولة استثمارها للغرض نفسه. فكما نقع في سلطة اللغة لنقاوم سلطتها نقع بالطريقة نفسها في سلطة الكونية في مقاومتنا لها.

إن خطورة هذه الكونية أنها كما يقول داريوش شايغان (Daryush Shayegan) سياسة "تستولي على كياننا برمته، وتجعل منا بشرا ببعد واحد"[36]. ومن السهل أن نلمس انتشارها في حياتنا اليومية عبر الإعلانات التي نحن مجبرون على رؤيتها في الوسائط الرقمية وعبر الأفكار التي تصدرها دول تسعى إلى تعميم نوع معين من الأيديولوجيات. وقد أصبحت الدول المحافظة نفسها أكثر حذرا في التعامل مع قضايا الحريات الفردية في شقها المرتبط بالمثلية الجنسية. ذلك أن أي معاملة مخالفة لتلك الفئات قد تجر عليها تنديدا عالميا وتدخلات قانونية أو ضغطا من المجتمع المدني والجمعيات المدافعة عنها. ولا يعني هذا أن حماية الأقليات من العنف أمر مرفوض. وإنما يعني أن الأداء الذي بدأ مقاومة لمعيار مهيمن صار يمتلك من أدوات الهيمنة ما كان يملكه خصمه، ولم يقف الأمر عند حدود السياسة. فالسوق بدورها دخلت على خط هذه الكونية. وبتلر نفسها تقر بأن "العديد من الناس يستغلون من قبل الشركات والإعلانات التي تسعى لإنتاج واستغلال رغبتهم بحياة أفضل"[37]. لقد أصبحت الحرية في عصرنا سلعة وقيمة تجارية (cash value) تتسابق عليها المطامع الاقتصادية[38]. وتحولت قضايا الأقليات إلى استراتيجية في التسويق تتبناها الشركات والعلامات العالمية لا إيمانا بها بل طلبا للربح. ويصدق على هذا الوضع وصف من رأى أن الرأسماليين "احتكروا الاقتصاد واحتكروا الحرية معا"[39]. وهكذا تجد المقاومة نفسها مرة أخرى داخل البنية التي أرادت التحرر منها. فالسوق التي تستوعب خطاب التحرر تفرغه من بعده النقدي وتعيد بيعه في صورة هوية جاهزة.

يطرح هذا التحول تحديات فلسفية لا يمكن تجاهلها. فهل يمكن للحرية التي كانت يوما ركيزة للكرامة الإنسانية أن تحافظ على قيمتها حين تتحول إلى مادة قابلة للتداول تتأرجح قيمتها مع البورصة العالمية؟ وهل تبقى قيمة فلسفية نابعة من الكرامة أم تصير خاضعة لقانون العرض والطلب؟ إن سؤال بتلر عن الحياة الحقيقية ضمن الحياة الزائفة ينبعث هنا بصيغة أكثر شمولا وكونية. فالحياة الزائفة لم تعد تلك

(31) بتلر، قلق الجندر، 42.
(32) بتلر، قلق الجندر، 43.
(33) بتلر، قلق الجندر، 138.
(34) بتلر، قلق الجندر، 138.
(35) بتلر، قلق الجندر، 31.
(36) داريوش شايغان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد (بيروت: دار الساقي، 1993)، 32.
(37) يوسف الصمعان، "الجندر والجنسانية: حوار مع جوديث بتلر"، ترجمة حسين القطان، مجلة الحكمة (يونيو 2018): 6.
(38) شوقي جلال، العقل الأمريكي: من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات، ط. 2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2000)، 133.
(39) جلال، العقل الأمريكي، 98.

التي تفرضها المعايير الاجتماعية التقليدية وحدها. إنها أيضا تلك التي تبيع للأفراد صورا جاهزة عن تحررهم وتوجه رغباتهم نحو تصورات محددة للحياة الأفضل.

خامسا: المفارقة الثالثة: حين تصير الأقلية سلطة

تبلغ المفارقة ذروتها حين ننظر إلى العلاقة بين الأقلية والمجتمع. فقد انتقلت قضايا الحريات الفردية من كونها أصواتا لأقليات تطالب بالتعايش والتقبل إلى سلطة تفرض نفسها وتؤثر في الأجيال الناشئة. وأصبحت هذه السلطة في بعض السياقات قادرة على أن تجر معارضيها إلى العقاب بمجرد رفضهم لها. ومن هنا ينبعث سؤال لا يمكن تجاهله: هل نستطيع فعلا أن نعبر عن آرائنا وفق الحرية نفسها التي تطلبها هذه الفئات؟ ألم تعد حريتهم حاجزا أمام حرية الآخرين؟ لقد انعكست المعادلة. فبعد أن كانت هذه الفئات تسعى بوصفها أقلية إلى نيل القبول الاجتماعي بات من لا ينتمون إليها يبدون في سياق هذا النقاش كما لو كان هم الأقلية.

لفهم ما يبدو انقلابا في مواقع الأطراف داخل النقاش العام، يمكن الاستعانة بتحليل عالم النفس الاجتماعي جوناثان هايدت (Jonathan Haidt) فهو يرى أن المجتمع الأمريكي المعاصريتبع في تنشئة الاطفال نهجا خاطئا يفضي إلى طفولة هشة [40]. ويربط هذه الهشاشة بنوع محدد من سياسات الهوية (identity politics). ويميزفي هذا السياق بين مقاربتين للدفاع عن حقوق فئة اجتماعية. تقوم المقاربة الأولى التي جسدها قادة النضال من أجل الحقوق المدنية ومنهم مارتن لوثر كينغ الابن (Martin Luther King Jr.). على إبراز مايجمع أفراد الفئة والسعي إلى الحد مما تتعرض له من تمييز وظلم. أما المقاربة الثانية فتقوم في نظر هايدت، على توحيد أفراد فئة اجتماعية في مواجهة فئة أخرى تصور بوصفها عدوا مشتركا كما في الخطابات التي تضع النساء في مواجهة الرجال ويسمي هايدت هذه المقاربة "سياسة الهوية القائمة على فكرة العدو المشترك"[41].

وتكمن خطورة هذه السياسة في أنها تشوه العلاقات الاجتماعية وتؤجج الصراعات بين الجنسين وبين الأعراق من دون أن تولي اهتماما لما يعزز التقارب والتعاون. فإذا كان ثمةعدو مشترك فهو النظام الذي يكرس التفرقة بين فئات المجتمع. وفي سعينا إلى اثبات الهوية قد تنخرط عن وعي أو عن غير وعي في أجندات تفضي إلى ما يسميه فتحي المسكيني "عناصر هووية جاهزة"[42] توظف لتحقيق أغراض غير بريئة. وهذا ما يحدث عندما تلجأ بعض الفئات إلى اختلاق عدو ومهاجمته عوضا عن مساءلة الأفكار والبنى التي تنتج الظاهرة الاجتماعية.

واللافت أن بتلر نفسها تقدم ما يتيح نقد هذا المنطق. ففي حديثها عن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب (Donald Trump) تنتقد التركيز على الأشخاص بدل الأنظمة فتقول: "إن الصراع ضد ترامب صراع وطني، لكنه عالمي كذلك، بما أن تكتيكاته تتشارك مع العديد من الأنظمة في العالم [...]. يجب أن يصبح ترامب الشخص، أقل أهمية وصدمة من ترامب النظام"[43]. وإذا طبقنا هذه القاعدة على قضايا الجندر نفسها، فإن توجيه المقاومة إلى البنى التي تنتج الإقصاء يقتضي تجاوز استهداف الرجل أو المعارض أو المختلف.

ويتصل نقد استهداف الأشخاص بنقد بتلر لمنطق العقاب في قراءتها لفريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche). فهي ترفض على اختزاله نيتشه العلاقة الحوارية بين الذوات في علاقة قانونية وقضائية قوامها العقاب. ويرتبط هذا الاختزال بتصوره للتراتبية بين الذوات، وهو تصور يتجلى في قوله "ليس الناس سواسية"[44]. وفي المقابل تميل بتلر إلى مقاربة فوكو "لأنه يرفض تعميم مشهد العقاب لتفسير الطريقة

(40) Jonathan Haidt, "Why Modern America Creates Fragile Children," Big Think, April 5, 2023, video, 2:57, https://www.youtube.com/watch?v=QvrMNDv6iYU.

(41) Haidt, "Why Modern America Creates Fragile Children," 9:58. Our translation.

(42) فتحي المسكيني، الكوجيطو المجروح (الرباط: دار الأمان، 2013)، 230.

(43) الصمعان، "الجندر والجنسانية"، 13.

(44) فريدريك نيتشه، ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيل حجار (بيروت: دار الفارابي، 2003)، 257.

التي تتشكل بها الذات"[45]. وتضيف: "قد تكون ثمة رغبة في المعرفة والفهم غير مدفوعة بالرغبة في إنزال العقاب"[46]. ولكن ما الذي يبقى من هذا الموقف حين يصبح من يعترض على طريقة ممارسة المقاومة عرضة للعقاب القانوني أو الاجتماعي؟ إن أداء المقاومة، حين ينجح ويتحول إلى معيار، يعيد إنتاج المشهد النيتشوي الذي رفضته بتلر. ففيه ذاتٌ تُحاكِم وذاتٌ تُحاكَم وقاعدة تحدد من يستحق الاعتراف.

وتنتبه بتلر إلى هذا الخطر. فهي تدعو في كتاب «الذات تصف نفسها» إلى تعليق الحكم على الآخر ريثما نتعرف إليه. وترى أن الحكم عليه. وترى أن الحكم قد يغدو وسيلة لممارسة العنف باسم الأخلاق[47]. غير ان هذه الدعوة تظل في حدود الأخلاق الفردية ولا تمتد إلى مساءلة الأداء المقاوم حين يصبح سياسة عامة تسندها المؤسسات والسوق. وهنا تحديدا تكمن الثغرة التي يكشف عنها مفهوم المفارقة.

سادسا: الهشاشة المشتركة والذات القادرة: أفق لتجاوز المفارقة؟

إذا كانت المحاور السابقة قد كشفت عن مفارقة في نظرية الأداء فإن بتلر نفسها تقدم في موضع آخر من فكرها أدوات لمساءلة هذه المفارقة. ففي القسم المخصص للمسؤولية من كتابها «الذات تصف نفسها» تتوقف عند فكر إيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas) الذي يؤسس المسؤولية على إدراك العلاقة الأخلاقية بين الذات والآخر. غير أنها تكشف تناقض صارخ في فكره حين يتحدث عن اليهود بوصفهم شعبا تعرض للاضطهاد من دون أ يلتفت لما تعرض له الفلسطينيون. فهي ترى أن الادعاء بأن دولة إسرائيل وحدها عانت من الاضطهاد يتجاهل الطرد القسري لأكثر من سبعمائة ألف فلسطيني من ديارهم وقراهم عام 1948 فضلا عن مصائب الحرب والاحتلال[48]. وتضيف: "تحمل كلمات ليفيناس هنا جراحا وانتهاكات، وهي تشكل معضلة أخلاقية لمن يقرأها"[49].

تكتسب هذه القراءة أهميتها في سياق مقالنا لأنها تكشف عن المفارقة في أقصى صورها. فالضحية التي تبني أخلاقها على ذاكرة الاضطهاد قد تنتهي إلى اضطهاد غيرها حين يصبح اعترافها بمعاناة الآخرانتقائيا. وهذا عين ما نجده في أداء المقاومة حين يصير سلطة. فالذات التي قاومت الإقصاء باسم هشاشتها قد تقصي غيرها باسم الهشاشة نفسها. ولا تكفي نظرية الأداء وحدها للحيلولة دون هذا الانقلاب إذ يقاس نجاح هذا الاداء بقدربه على تغيير الواقع، وتظل عدالة الواقع الذي ينتجه. خارج معيار النجاح

وقد طورت بتلر في كتاباتها المتأخرة مفهوم الهشاشة وهو مفهوم يتيح تجاوز هذا الانتقاء. فهي ترفض سياسة القائمة على ما تسميه الهشاشة المستحدثة وتقول: "لو فكرت بالكيفية التي يعتقل فيها الشباب الفلسطيني، أو يصابون أو يقتلون، سترى عندها كيف تعامل مجموعة سكانية على أنها، معرضة بشكل متمايز لظروف الهشاشة، ومدفوعة لتعيش حياة هشة"[50]. إن الهشاشة بهذا المعنى ليست امتيازا لفئة دون أخرى بل شرط مشترك بين البشر. ولو اتخذت المقاومة هذا الشرط المشترك منطلقا لها لكانت أقرب إلى المقاربة الأولى التي وصفها هايدت، وهي مقاربة تقوم على البحث عما يجمع الناس وينسجم هذا التوجه مع موقف باتلر من مناهضة العنف بأشكاله كافة سواء أكان موجها إلى الأفراد والأقليات أم اتخذ شكل العنف السياسي الاستعماري

ويلتقي هذا الأفق بمفهوم الذات القادرة عند بول ريكور. فقد التفت ريكور إلى البعد الأخلاقي الذي يحكم تعرف الذات على ذاتها ثم اعترافها واقرارها بأقوالها وأفعالها وتحمل المسؤولية عنها وربط ذلك ب "الالتزام بالقصد الإتيقي للحياة المشتركة"[51]. ومن القدرات التي

(45) بتلر، الذات تصف نفسها، 55.

(46) بتلر، الذات تصف نفسها، 50.

(47) انظر: بتلر، الذات تصف نفسها، القسم المعنون «ضد العنف الأخلاقي».

(48) بتلر، الذات تصف نفسها، 171–172.

(49) بتلر، الذات تصف نفسها، 173.

(50) الصمعان، "الجندر والجنسانية"، 11.

(51) عبد الحق منصف وعز الدين الخطابي، أنطولوجيا الهشاشة والقدرة الإنسانية (المغرب: أفريقيا الشرق، 2019)، 18.

يحددها ريكور القدرةُ على تحمل المسؤولية، وهي ثمرة أخلاقية لقدرات الكلام والفعل والحكي. فبعد أن تقدم الذات نفسها وتاريخها عبر اللغة والسرد وتحدث بأفعالها تغييرا في مجتمعها، تغدو قادرة على الاقرار بأفعالها وبما ترتب عليها وفي هذا الصدد يربط ريكور صيرورة الذات ذاتا قادرة بالسرد الذي ينقل تجربتها ويروي معاناتها عبر الزمن "[52].

إنّ الذات القادرة، بهذا المعنى، لا تكتفي بالمقاومة، فهي تسأل عن أثر مقاومتها في الآخرين وتعترف بالآخر بوصفه ذاتًا قادرةً مثلها. وبذلك تجمع بين ما تدعو إليه باتلر من انفتاحٍ على الآخر وكفٍّ عن مطالبته بتقديم وصفٍ نهائي لذاته، وبين ما تفتقر إليه نظرية الأداء من مساءلة المقاوم عن نتائج أدائه. فالمقاومة التي تتحمّل مسؤوليتها تسأل عمّن سيدفع ثمن نجاحها قبل أن تحكم على مشروعية أدائها.

خاتمة

حاولنا في هذا المقال أن نقرأ مفهوم أداء المقاومة عند جوديث باتلر قراءةً نقديةً من داخله. وقد تبيّن لنا أنّ هذا المفهوم ينطوي على مفارقة تتجلّى في ثلاثة مستويات. فعلى مستوى اللغة، تضطرّ المقاومة إلى استعمال قوة اللغة ذاتها التي تتصدّى لها. وعلى المستويين السياسي والاقتصادي، أدّت مقاومة الكونية إلى الانخراط فيها واستثمارها في نشر الأفكار، وتحوّلت الحرية في السوق إلى سلعة. أمّا على مستوى العلاقة بين الأقلية والمجتمع، فقد ينقلب خطاب الاعتراف إلى سلطةٍ تعاقب مَن يخالفها.

لا ترمي هذه الخلاصة إلى الحكم على مشروع باتلر بالفشل. فالمفارقة التي كشفنا عنها شرطٌ ملازم لكلّ مقاومة تجري داخل العالم الذي تقاومه، ومن ثمّ يتعذّر تجاوزها كما يُتجاوَز الخطأ المنطقي. وهكذا ينتقل السؤال من إمكان المقاومة من دون استعمال أدوات السلطة إلى إمكان استعمال هذه الأدوات من دون التحوّل إلى سلطةٍ مماثلة. ونعتقد أنّ الجواب يمرّ بوعي المقاومة بمفارقتها، أي بقدرتها على أن تظلّ منفتحةً على المراجعة وأن ترفض تقديم وصفٍ نهائي للذات أو للآخر. وهذا ما ينسجم مع تنبيه باتلر إلى أنّ الحياة تستعصي على الوصف النهائي، وأنّ مثل هذا الوصف يسلب الذات والآخر فرصة العيش بحرية.[53]

لقد كشفت باتلر في «قلق الجندر» كيف أفضت المقاومة النسوية إلى إقصاءٍ جديد حين احتاجت إلى هويةٍ ثابتة. وحاولنا في هذا المقال أن نطبّق الدرس نفسه على فكرها، وفاءً لنهجها النقدي. فإذا كانت الذات عاجزةً عن تقديم وصفٍ تامّ لنفسها، فإنّ المقاومة، بدورها، تعجز عن تقديم وصفٍ تامّ لعدالتها. وقد يتيح الانتقال من ذاتٍ تقاوم إلى ذاتٍ قادرةٍ ومسؤولة تعي هشاشتها وهشاشة غيرها الإجابة عن السؤال الذي ظلّ يحرّك فكر باتلر، وهو «كيف يمكن أن نعيش حياةً حقيقيةً ضمن حياةٍ زائفة؟»[54]

(52) بول ريكور، نقلا عن: جان غروندان، بول ريكور، ترجمة جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2018)، 130.

المراجع والمصادر

أولا: بالعربية

بتلر، جوديث. الذات تصف نفسها. ترجمة فلاح رحيم. بيروت: جامعة الكوفة، 2014.

بتلر، جوديث. قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية. ترجمة فتحي المسكيني. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022.

جلال، شوقي. العقل الأمريكي: من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات. ط. 2. القاهرة: مكتبة مدبولي، 2000.

الحيرش، محمد. النسق والاستعمال: من لسانيات اللغة إلى لسانيات التواصل. طنجة: دار الفاصلة للنشر، 2021.

السعداوي، نوال. عن المرأة والدين والأخلاق. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2018.

شايغان، داريوش. أوهام الهوية. ترجمة محمد علي مقلد. بيروت: دار الساقي، 1993.

الصمعان، يوسف. "الجندر والجنسانية: حوار مع جوديث بتلر". ترجمة حسين القطان. مجلة الحكمة (يونيو 2018).

عبد العال، سامي. "اللغة والجسد: الفلسفة النسوية عند جوديث بتلر". مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية 31، ع. 31، ج. 2 (يوليو 2021).

العلوي، رشيد. الفلسفة بصيغة المؤنث. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2018.

غروندان، جان. بول ريكور. ترجمة جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2018.

المرنيسي، فاطمة. ما وراء الحجاب: الجنس كهندسة اجتماعية. ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل. ط. 4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005.

المسكيني، فتحي. الكوجيطو المجروح. الرباط: دار الأمان، 2013.

منصف، عبد الحق، وعز الدين الخطابي. أنطلوجيا الهشاشة والقدرة الإنسانية. المغرب: أفريقيا الشرق، 2019.

نيتشه، فريدريك. ما وراء الخير والشر. ترجمة جيزيل حجار. بيروت: دار الفارابي، 2003.

ثانيا: بالأجنبية

Butler, Judith. Excitable Speech: A Politics of the Performative. New York: Routledge, 1997.

Butler, Judith. "Sex and Gender in Simone de Beauvoir's Second Sex." Yale French Studies, no. 72 (1986): 35–49.

Butler, Judith. Undoing Gender. New York: Routledge, 2004.

ثالثا: مراجع رقمية

Butler, Judith. "Berkeley Professor Explains Gender Theory." Big Think, June 8, 2023. Video. https://www.youtube.com/watch?v=UD9IOllUR4k.

Haidt, Jonathan. "Why Modern America Creates Fragile Children." Big Think, April 5, 2023. Video. https://www.youtube.com/watch?v=QvrMNDv6iYU.